مقدمة

جاء المهاجرون الى العالم الجديد من شتى الأمم فى الدنيا القديمة ، فجاءوا مزيجا من ثقافات مختلفة ، ولبثوا أمدا طويلا على اتصال وثيق بأصولهم الأولى ، حتى لقد ظلت تيارات الفكر الأوروبى المختلفة تنساب الى العالم الجديد غداة ظهورها ، فكل صوت يرتفع فى أوروبا كان له صداه فى أمريكا ، ولم ير الأمريكيون فى ذلك — أول الأمر — غضاضة ، لأنه ان كانت مقتضيات العقيدة الدينية قد حملتهم على الهجرة عن بلادهم الأولى ، وان كانت مصالح الاقتصاد بعد ذلك قد أوجبت أن تحدد الهجرة وأن تقام الحواجز فى عالم التجارة ، فماذا يمنع أن تشترك الفروع مع أصولها فى الفكر وأن تتبادل معها الرأى والنظر ؟ لهذا ظلت أبواب العالم الجديد مفتوحة على مصاريعها ، تتقبل من ألوان التفكير كل ما تهتز به أوروبا ، على اختلاف مصادره وتعدد مذاهبه .

لكن المجتمع الجديد سرعان ما تميز بطابع جديد ، ثم ما لبث هذا الطابع أن أصبح معيارا تقاس عليه الواردات الفكرية ، فيقبل منها ما يقبل ، ويرفض ما يرفض ، ويعدل ما يراد قوله بعد تعديل ، وأما هذا الطابع الجديد المميز

للمجتمع الأمريكي فهو – في اعتقادي – تلك « الفردية الجماعية » التي لا تغرق الفرد من الناس في خضم المجتمع ، بل تحتفظ لكل انسان بفرديته المستقلة على الرغم من اشتراكه مع الآخرين في جماعة واحدة يربطها الصالح المشترك ، واذن فهي جماعة أقرب الى الشركة التعاونية التي يحرص كل عضو فيها على استقلال شخصيته ، وان يكن في الوقت نفسه حريصا أشد الحرص على ازدهار الشركة ونمائها ، هي أقرب الى ذلك منها الى الكائن العضوي الذي لا يجعل للعضو فيه وجودا الا بانطوائه تحت الكل الذي يحتويه ؛ فالمجتمع الأمريكي في صميمه « كثرة » من أفراد لا جسم واحد ذو أعضاء ، غير أن تلك « الكثرة » ليست أشتاتا موزعة الأهواء متباينة النزعات ، بل هي كثرة تلتقي حباتها في عقد واحد يضمها دون أن تضيع فردية الحبة الواحدة بهذا الالتقاء .

على هذا الأساس يتم قبول الأفكار أو رفضها أو تعديلها ، فالفصل الأول من هذا الكتاب فيه تصوير للفكر الأمريكي ابان العشرات الأخيرة من أعوام القرن الثامن عشر ، فكان الفكر حينئذ سياسيا في معظمه ، يدور حول حقوق الأفراد الطبيعية التي على أساسها أقيمت السياسة وأقيم الحكم وأقيمت الحياة ، بل على أساسها أقيمت العقائد الدينية نفسها ، اذ كانت الكثرة الغالبة من الأمريكيين

من « البروتستانت المتزمتين » (البيورتان) وهؤلاء يعلون من شأن ارادة الفرد اعلاء يحفظ له حقوقه فى أن يلتمس لنفسه طريق النجـاة الروحية ، وحقوقه فى أن يفكر حرا ويعمل حرا وأن يحتفظ بثمرة عمله — وهكذا جاءت فلسفة عصر التنوير مؤيدة لهذه المبادىء ، اذ جعلت أساس المجتمع تعاقدا بين أعضائه ، ولكل فرد حقوقه الطبيعية فى الحيـاة وفى الحرية وفى التماس العيش السعيد ، وهى حقوق فطرية لم يهبها أحد أحدا .

فلما أن جـاء النصف الأول من القرن التاسع عشر انتقلت هذه الفردية من ميدان السياسة الى ميدان الفلسفة والأدب ، وهنا نهض « امرسن » و « ثورو » وغيرهما يؤكدان استقلال الفرد على الرغم من صلاته ببقية أفراد البشر ، كانت الفلسفة السائدة فى ذلك العهد هى الفلسفة الهيجلية المثالية ، انتقلت الى انجلترا عن طريق شعرائها ، وبخاصة « كولردج » وعن هذا الطريق جاءت الى أمريكا ، لكنها لم تكد تنتقل الى أمريكا حتى عدلت بما يلائم وجهة النظر الأمريكية التى أشرنا اليها ، فلم يعد الأفراد — كما تريد لهم الفلسفة المثالية — مغرقين فى « المطلق » بل أصبح كل فرد — عند « امرسن » — ممثلا لذلك « المطلق » الهيجلى ، أى أن كل فرد حقيقة قائمة بذاتها على الرغم من أنه اذ يشعر واذ يفكر أو يعبر ، فانما هو « ينوب » فى ذلك

عن الانسانية جميعا ان كان صادق الشعور والتفكير والتعبير ومن هنا كان اهتمام « امرسن » باعتماد الفرد على نفسه ، وبالتالى اهتمامه باعتماد أمريكا على نفسها فى مجال الفكر والشعور ، واتجه « ثورو » نفس الاتجاه مع اسراف أدى به الى أن يعتزل وحده فى غابة ليعيش بمفرده انسانا معتمدا على نفسه — هكذا ترى الفلسفة المثالية قد جاءت اليهم من ألمانيا ، لكنهم حين أخذوا عنها فكرة الروح الكونية المطلقة الشاملة ، لم تسمح لهم أنفسهم بالانسياق الى ما قد ساقت اليه أصحابها الأولين من دمج الأفراد فى واحدية كونية مطلقة ، بل احتفظوا للأفراد بفرديتهم مع جعلهم قلوبا شاعرة وألسنة معبرة عن تلك الروح الكونية الشاملة ، كما شرحنا ذلك فى الفصل الثانى وتبع ذلك — فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر — موجة مثالية أخرى هى التى تسمى عادة « بالكانتية الجديدة » ، أخذها فلاسفة العالم الجديد عن الفلسفه الألمانية أيضا — أخذوها عن كانت وهيجل — لكنهم هنا أيضا قد صاغوها فى قالبهم ؛ وقد بسطنا ذلك فى الفصل الثالث ، اذ بينا كيف جعل منها « باون » فلسفة مثالية ذاتية فردية ، ثم تولاها « جوزيا رويس » فكان مثال الفيلسوف الأمريكى العظيم الذى يصوغ ما يتلقاه من فكر على اطاره الخاص ، فقد قرأ شوبنهور وتأثر به ، لكنه رفض تشاؤمه ، وقرأ هيجل وأخذ كثيرا من مبادئه المثالية

obeikandi.com

لكنه رفض مذهبه التاريخي الذي يجعل سير الحوادث حتما لا مفر منه، كما رفض رأيه القائل بسيادة الدولة سيادة مطلقة، ودرس « كانت » ولكنه صاغ من كل تلك الفلسفات الألمانية المثالية فلسفة مثالية أمريكية توازن بين الحقيقة المطلقة من ناحية وبين الفرد وحريته من ناحية أخرى بميزان دقيق، ولا عجب أن يسمى كتابه المشتمل على الجزء الهام من مذهبه « العالم والفرد » — ففى كل خطوة يخطوها تراه حريصا على التأليف بين الفرد وسائر الأفراد، أو بين الارادة الواحدة وسائر الارادات، أو بين المجتمع الواحد وسائر المجتمعات، تأليفا يبقى على كيان الفرد الواحد من جهة، ثم يجعله جزءا شريكا فى البناء الكلى من جهة أخرى.

وفى الفصل الرابع والفصل الخامس معا بيان للحركة البراجماتية التى ظهرت فى أواخر القرن الماضى ثم امتدت الى يومنا هذا، اذ بسطنا لك آراء أعلامها الثلاثة: «پيرس» و « چيمس » و « ديوى »، وهى فلسفة جاءت بمثابة الثورة على التفكير المثالى الذى يباعد بين الفكر والعمل، فجعلت الفكر والعمل وجهين لحقيقة واحدة، اذ جعلت معنى الفكرة هو نجاح تطبيقها، وبهذا وصل الفكر الأمريكى الخالص الى فلسفة أمريكية خالصة نشأة وطابعا، فلئن كان الفلاسفة قبل ذلك يأخذون عن أوروبا ثم يعدلون ما يأخذونه بما يجعله ملائما لوجهة نظرهم، فقد جاءت البراجماتية نباتا أمريكيا بذورا وساقا وفروعا، ولا غرابة — اذن — أن يعرف الفكر

الأمريكى الحديث عند العالم أجمع بهذه الفلسفة البراجماتية التى تعبر عنه أصدق تعبير وأخلصه .

فلما تحطمت الفلسفة المثالية التقليدية على أيدى البراجماتيين ، تحطم معها التقليد الفلسفى كله ، الذى كان يربط الفيلسوف بنمط معين من التفكير ، وهنا خرجت مذاهب واتجاهات جديدة ، لم يكن لها جلال التفكير التقليدى القديم ، لكنها عوضت ذلك الجلال المفقود بروح علمية جديدة ، مالت بالفلاسفة نحو التشبه بالعلماء فى طريقة معالجتهم لمشكلاتهم ، من حيث تعاون مجموعة الباحثين على حل مشكلة بعينها بدل أن يستقل كل فرد منهم باقامة بنائه الفكرى الخاص ، وسترى فى الفصلين السادس والسابع شرحا لتلك الاتجاهات الجديدة ، كالواقعية الجديدة ، والواقعية النقدية ، ثم الفلسفة الطبيعية ، وعقبنا على ذلك بفصل ثامن وأخير ، عرضنا فيه اتجاهين من الاتجاهات المعاصرة عرضا موجزا ، هما الوضعية المنطقية ، والدعوة الى رجوع الفلاسفة الى ما هجروه من « تقليد عظيم » .

وقد اكتفيت فى عرضى لمجرى الحياة الفكرية الفلسفية فى العالم الجديد ، بالمعالم الرئيسية دون التفصيلات ، راجيا أن يكون هذا الكتاب صورة مجملة تتلوها صور جزئية فى سلسلة من كتب ، نفصل فيها ما أجملناه ، ونذكر ما قد أهملناه .

زكى نجيب محمود